

العولمة وآليات التأثير في الهوية الثقافية: دراسة تحليلية

Globalization and the mechanisms of influencing cultural
identity: analytical study

أ. منير برقاد

باحث في علم الاجتماع
جامعة محمد الخامس بالرباط - المغرب

mounirberrakkad@gmail.com



العولمة وآليات التأثير في الهوية الثقافية: دراسة تحليلية

أ. منير برقاد

الملخص:

تسعى هذه الدراسة الى تفكيك ظاهرة العولمة وإبراز آلياتها التي تؤثر على الهوية الثقافية للمجتمعات، فهل يمكن الإقرار بانتهاء العولمة وتلاشيها؟ أم أنها ما زالت حاضرة ومنتشرة في تفاصيل الحياة البشرية؟ تحضر العولمة كظاهرة كونية ممتدة، تشمل العديد من المجتمعات، إنها قوة وامتداد للفكر الواحد الذي ينمط كل الممارسات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية، إننا إزاء منظومة مركبة محبكة بعناية تتجه صوب صياغة نموذج موحد للعيش دون مراعاة خصوصية كل بلد أو احترام للتنوع الثقافي السائد بين بلدان العالم.

الكلمات المفتاحية: العولمة، الثقافة، التأثير، الهوية، النسق التربوي، آلية الاختراق، آلية السيطرة.

Abstract:

This study aims at analyzing the phenomenon of globalization and bringing out its mechanisms which influence the cultural identity of communities. Is it safe to assume that globalization does not exist anymore? Or is it safer to recognize the fact that it has become widespread?

Globalization is considered an extended universal phenomenon which concerns several communities. It represents the power and extension of a unique view according to which cultural, social, economic, and educational practices are patterned. It should be noted that we are dealing with a very complex and solid system that works towards shaping a unified model of life without taking into consideration the privacy and cultural diversity of the worlds' nations.

Keywords: Globalization, culture, influence, identity, educational system, penetration mechanism, control mechanism.

1- المقدمة:

لقد شكلت ظاهرة العولمة اليوم، أهمية كبرى في التفكير البشري، وانشغل بها المفكرون دراسة وتحليلاً ونقداً، فلفظ "عولمة" أصبح الأكثر شيوعاً وانتشاراً من حيث تداوله باستمرار في كل المجتمعات والثقافات. ويكتسي مفهوم العولمة طابعاً مركباً من حيث التعريف، بحيث تتعدد أشكال العولمة وتتنوع مجالاتها وآليات تأثيرها. إنها بمعناها الأوسع، تصبح ظاهرة أو حركة معقدة ذات أبعاد اجتماعية وسياسية وحضارية وثقافية وتكنولوجية، أفرزت تغيرات عالمية. كما أنّ لها تأثيراً على حياة الأفراد والمجتمعات والدول. ويمكن القول إنّ محاولة تناول ظاهرة العولمة ومقارنتها لهو أمر في غاية من التركيب والتعقيد، لكون مفهومها يتسم بالتعدد والعمق، الأمر الذي يعسر محاولات الإمساك به.

انطلاقاً من هذه المقاربة الفكرية التحليلية سوف يتم التركيز على دلالة العولمة كظاهرة كونية، ثم تناول أحد أشكالها الأكثر حضوراً وانتشاراً ألا وهي العولمة الثقافية، مع إبراز محتواها وتمظهراتها وتفكيك آليات تأثيرها على النسق الثقافي أو الهوية الثقافية. فالعولمة الثقافية أصبحت تفرض نفسها على الحياة المعاصرة، وهي بذلك من الموضوعات التي تحتاج معالجتها إلى قدر كبير من الفهم لعمقها وجوهرها، وإدراك بعدها وغايتها.

إنّ إبراز كيفية اشتغال العولمة الثقافية، يتطلب فهم بنية التأثير الذي يلحق بالثقافة كمركب من القيم والمعايير والعادات والمعتقدات والتقاليد والنظم والقواعد والسمات الفكرية وطرائق الحياة، من هنا، فإنّ العولمة كقوة حضارية يمكن أن تساهم في تغيير هذه المكونات الثقافية سواء بشكل مزدهر "إيجابي" أو بشكل قاصر "سلبي"، ومن هنا سيتم التركيز على الإشكالات التالية كمحاور أساسية لهذه المقاربة وهي: كيف تتحدد العلاقة بين العولمة والهوية الثقافية؟ وكيف يمكن تفكيك وتحليل تلك الآليات أو الميكانيزمات التي تؤثر من خلالها العولمة على الأنساق الثقافية أو بالأحرى الهويات الثقافية؟

إنّ أهمية التساؤل تبقى ملحّة، باعتبار أنّ الآليات التي يشتغل بها منطق العولمة ليس مجرد آلية اقتصادية وإعلامية وسياسية، بل هي على حدّ تعبير الباحث "عبد اللطيف الشقوري" آليات معرفية علمية تستمد جذورها مما يعرف اليوم بصناعة العلم والمعرفة.

سوف تركز هذه المقاربة التحليلية أولاً على محاولة إمساك مفهوم العولمة ومكوناتها وتحديدتهما، ثم تحليل ما يسمى بالعولمة الثقافية والتميز بينها وبين العالمية الثقافية، وتفكيك الآليات التي تحكم منطق العولمة في تأثيرها على الهوية الثقافية، بالإضافة إلى تأثير العولمة على النسق التربوي للمجتمعات، مع التأكيد على أنّ مسألة الغنى المعرفي لكل مفهوم تبقى حاضرة باستمرار.

2- في مفهوم العولمة:

إنّ محاولة تحديد مفهوم العولمة، يطرح عدّة مقاربات متعددة، لعلّ من أبرزها المقاربة التاريخية التي بحثت عن التأسيس الأولي للمفهوم، عبر البحث عن الجذور التاريخية لتشكله، وأخرى مقاربة فكرية اتجهت نحو فهم العولمة كسيرورة كونية يتداخل فيها كل ما هو سياسي واجتماعي واقتصادي وعلمي. لقد

أصبح مفهوم العولمة سائد الانتشار عبر وسائل الاعلام كما في أوساط الرأي العام، مما يعني أنّ العولمة تهض بوظيفة حقيقية تثير تساؤلات ونقاشات ومعارضات لا حدود لها.

إنّ مفهوم العولمة في اللغة العربية هي ترجمة لكلمة Globalisation في الانجليزية، وتقابلها كلمة Mondialisation في اللغة الفرنسية، وهي كلمة حديثة في اللغة العربية، وتعود في أصلها إلى الاشتقاق العربي لكلمة عالم، و"تعني تصميم الشيء ليصبح عالمياً أو نقله من حيز الخصوصية إلى مجال العمومية في مستواه الكوني، ويغطي هذا المفهوم التطورات المذهلة التي شهدتها المجتمع الانساني في مجال الاقتصاد والمعلوماتية والانفجار المعرفي، ويعبر عن هذه التحولات وتكاملها بمصطلح القرية الكونية Global village الذي يرمز إلى حالة التكامل والاندماج بين أطراف العالم اقتصادياً ومعلوماتياً وثقافياً حيث تتوارى الحدود والحواجر الجمركية والثقافية والمذهبية بين مكونات الوجود الانساني"¹. ومن خلال هذا التعريف، يمكن اعتبار العولمة مرحلة جديدة تذوب فيها الحدود والحواجر بين مختلف الميادين، ولها مظاهرها الاقتصادية والسياسية والإعلامية والثقافية المعلنة بشكل كوني.

وتصبح العولمة من الوجهة الفكرية نسقا مترامي الأطراف، يتسم بغنى مكوناته ليتجه نحو تأسيس نسقه الخاص، أي تحقيق الكونية والشمولية والوحدة العالمية. في هذا السياق، نجد الباحث الانجليزي "جون توملينسون" في تعريفه للعولمة، يعتبرها حالة تجريبية، أطلق عليها اسم "الارتباطية المعقدة" (Complex connectivity). ومن هنا، يمكن التساؤل عن الدلالة المعرفية لهذا المفهوم، فماذا يقصد به "توملينسون"؟ يحدّد "توملينسون" هذا المفهوم في كونه يشير إلى تلك "الشبكة سريعة التطور ومتزايدة الكثافة دوماً من الترابطات (Interconnections) والعلاقات المتبادلة (Interdépendances) التي تميز الحياة الاجتماعية الحديثة"²، بهذا المعنى يصبح الحديث عن العولمة كالحديث عن حلقة وجودية مستمرة تحمل في طياتها تغيرات وعلاقات وعمليات تأثير وتأثر يكون فيها الإنسان فاعلاً في التاريخ المؤسس للعولمة وفي نفس الوقت متأثراً بمجموعة من الأحداث على نحو وظيفي، هذا من جهة. ومن جهة أخرى تصبح فيها العولمة قوة موجهة ومسيطرة على الإنسان بفعل ألياتها، والارتباطية هنا، يمكن أن تتمظهر عبر ارتباط الإنسان بمجموعة من الأوضاع الاقتصادية والسياسية والثقافية التي تفرض وقعها عليه لتجعله متفاعلاً معها بشكل علائقي وشمولي؟

ويمكن إدراج مفهوم آخر للعولمة، وذلك باعتبارها "ظاهرة تاريخية تعكس بصورة جدلية الحركة التاريخية لتطور البشرية في الحقول كافة، فهي نتاج لتحولات وحركة التناقضات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الفاعلة في المجتمعات البشرية، في إطار تفاعل الزمان والمكان"³، وبالتالي اعتبارها صيرورة

1- علي أسعد وطفة، التربية العربية والعولمة، عالم الفكر، العدد 2 المجلد 36 أكتوبر-ديسمبر 2007 ص 325.

- جون توملينسون، العولمة والثقافة، ترجمة ايهاب عبد الرحيم محمد، سلسلة عالم المعرفة، عدد 354، أغسطس 2008 ص 102

3- إبراهيم نصار، العولمة جدل الثقافة والتربية، مجلة تربويات العدد 1، 2007، ص 81.

تراكمية متواصلة بالمعنى التاريخي يمكن أن تتخذ أشكالاً متعددة كالعولمة الثقافية والعولمة الاقتصادية والعولمة الإعلامية.

تشهد الإنسانية في ظل ما يسمى بالعولمة، عصراً جديداً تتغير فيه العلاقات البشرية في الزمان والمكان، وتتغير فيه الهوية والعلاقة بالغير، وتصبح العولمة شكلاً جديداً من أشكال الإنتاج والاتصال والتداول، وهذا ما يتجلى عبر عدة مظهرات كاللغة الرقمية أو العالم الافتراضي والخبر الكوني والثقافة الكونية، أو اقتران ظاهرة العولمة (لا مكان، لا توطن) "بالنزعة الاستهلاكية Consumerism، باعتبارها تقليلاً لقيمة تفرد الأشياء المادية وعلاقتها مع الإنسان"¹.

بهذا المعنى، يمكن الحديث عن عولمة ثقافية تتجه لصياغة نموذج أحادي عابر للحدود أو ما يسمى "بكلية الوجود"، أو ما عبر عنه "توملينسون" بأحادية عالمية (Unicity) وهي إحساس بأنّ العالم يصير لأول مرة في التاريخ مكاناً وزماناً اجتماعياً وثقافياً واحداً، بمعنى تعميم نموذج واحد لكي يشمل كل المجتمعات والثقافات في العالم، هذا ما يجعل الحديث عن موقع الإنسان في العالم كحصن وجودي يمكن أن يتفاعل مع إفرزات العولمة سواء على نحو فعال، بحيث يتأثر الإنسان بظواهر كونية ليست نابعة من بيئته الاجتماعية وإنما هي دخيلة قطعت وتيرة واسعة في الانتشار والتأثير لتحمل معانٍ وقيم وأفكار جديدة تؤثر عليه، أو يمكن لهذه الظواهر أن تؤثر على نحو قاصر على البنيات الذهنية للأفراد داخل مجالهم الاجتماعي المحلي. وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ الإنسان يستطيع أن يتفاعل مع هذه الظواهر مثلما يستطيع أن يتخلص منها ويتجنبها بإرادته وقدرة تميزه لينايبع هذه الظواهر المعولمة ومصادرها التي منها ما يهدد وجوده أو بوجه آخر يلغيه.

لقد ظهرت العولمة كما يتحدث عنها العديد من المفكرين، في مجال الاقتصاد والتجارة والمال، ثم أصبح يجري الحديث عنها بوصفها نظاماً أو نسقاً وأنها ذات أبعاد متعددة تتجاوز ما هو اقتصادي لتشمل إلى جانب ذلك الفكر والمبادلات والتربية والسياسة والاتصال والايديولوجيا. وعلى ضوء هذه الدلالات المتعددة لمفهوم العولمة، يمكن هنا صياغة مفهوماً مركزياً واجرائياً للعولمة، والذي من خلاله يمكن موضعها كمفهوم أساسي للاشتغال به في هذه المقاربة، ومن خلاله أيضاً، يمكن الإجابة عن الاشكالات التي تم طرحها في البداية.

إنّ الدلالة التي يكتسبها مفهوم العولمة، هي اعتبارها صيرورة وجودية مؤثرة ومستمرة ومترابطة تضم المكوّن الثقافي والاقتصادي والاجتماعي والإعلامي والسياسي، وتمارس في الوقت نفسه مجموعة من آليات التأثير على الأنساق الثقافية والتربوية والاجتماعية. وبمعنى آخر وعلى حد تعبير "تيمونز روبرتس"، تصبح العولمة تعبيراً عن مرحلة جديدة أو "نقطة نوعية" أثرت على تنظيم المجتمعات، من حيث أنّ الجماهير

1- لوتشيانو فلوريدي، الثورة الرابعة، كيف يعيد الغلاف المعلوماتي تشكيل الواقع الإنساني، ترجمة لؤي عبد المجيد السيد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، العدد 452، سبتمبر 2017، ص 66.

المحليّة وحكوماتها خصوصاً لم "تعد لها السيطرة على مفاتيح القرارات التي سوف تشكل حياتها".¹ سواء تعلق الأمر بالقرارات المرتبطة بالشؤون الثقافية أو التربوية أو الاقتصادية وحتى السياسية، فالعولمة انطلاقاً من منطقتي امتدادها واشتغالها تسود على هذه الأنظمة وتؤثر في بنيتها.

إذن، ومن خلال هذه الرؤية المفاهيمية، يمكن التساؤل عن ما تفرزه العولمة كصيرورة، لمجموعة من التأثيرات على الهوية الثقافية والنظام التربوي، كما يمكن التساؤل عن هذه الظاهرة التي تسمى بالعولمة «Globalisation» هل هي أمر جيد للبشر الذين يعيشون على هذه الأرض؟

3- آليات التأثير على الهوية الثقافية:

يتحدّد مفهوم الهوية الثقافية كنسق يضمّ مجموعة من المكونات والعناصر والخصائص المشكلة لوجود الإنسان في المجتمع، كالحديث عن الدين ونمط العيش والقيم والمعايير والتقاليد والعادات التي تؤسّس هوية ثقافية لمجتمع ما وتميّزه عن الهويات الثقافية الأخرى. ويمكن القول إنّه ليست هناك هوية ثقافية واحدة بل هويات متعدّدة تختلف من مجتمع إلى آخر وتعرف أشكالاً وتمظهرات ثقافية مختلفة، فكما نتحدث عن الثقافة الهندية مثلاً، والتي تتميز بالتعدّد على مستوى اللغة وأشكال التدين والتقاليد وعادات مختلفة، يمكن الحديث أيضاً عن الثقافة العربية ومكوناتها التي تختلف عن الثقافة الهندية أو الأوروبية. ومن هنا، فإنّ الإقرار بالتنوع الثقافي يصبح فكرة حضارية تطرح نفسها بشكل جوهري نظراً لما تحمله من معانٍ قيمية، ولكن أمام هذا التحوّل الذي يعرفه العالم وبالخصوص في ظهور ما يسمى بالعولمة كقوة وامتداد، وانتشار تكنولوجيا المعلومات والاتصالات كوجه من أوجه العولمة، فهل يمكن القول بأنّها تؤثر على الهويات الثقافية؟

تتحدّث الباحثة "ليزا ه نيوتن" عن وجود اتجاهين حول العولمة، "اتجاه يدافع عن العولمة كمشروع عالمي، واتجاه آخر يعارضها بحجة أنّها تهدّد مصير الإنسان"² معنى هذا أنّ الحديث عن العولمة الثقافية يعرف اختلافاً على مستوى الرؤية، حيث تكمن فكرة التأثير السلبي والتأثير الإيجابي للعولمة على الأنساق الثقافية. لكن الذي يهمني هنا، هو إبراز هذه التأثيرات وتفكيكها، واكتشاف أيّهما يهيمن على الآخر. بمعنى هل تكتسي ظاهرة العولمة وجه التأثير البنّاء المزدهر الذي يصبح فيه التنوع الثقافي قيمة جوهريّة ذات أهميّة في مجمل الإنتاج الثقافي الكوني، ويكون النسق الثقافي في هذه الحالة قائم بذاته يطور نفسه بنفسه؟ أم أنّ هناك بروز لمسألة التأثير "السلبي"، "الهدام"، والذي فيه تتجلى العولمة كقوة هدامة قد تمحي مكونات النسق الثقافي وتضعفه من حيث وجوده واستمراره؟

إذا كانت العولمة تتجه إلى تشكيل وصياغة ثقافة كونيّة (Global Culture) لتشمل جميع الأمم والمجتمعات والثقافات، وتؤكّد على إنشاء نوع جديد من الوعي يستجيب لأبعاد واتجاهات هذه الكونيّة

1 - ج تيمونز روبرتس، ريمي هايت، من الحداثة إلى العولمة، الجزء الثاني، سلسلة عالم المعرفة، عدد 310 ديسمبر 2004، ص 141.

2 - ليزا ه نيوتن، نحو شركات خضراء، ترجمة ايهاب عبد الرحيم محمد، سلسلة عالم المعرفة، عدد 329، 2006، ص 2

الثقافية الجديدة، فهي تفرز في الآن نفسه مجموعة من الآليات والميكانيزمات التي من خلالها تؤثر على الأنساق الثقافية للمجتمعات، وبالتالي قد تغير من بنية هذه الأنساق وتضفي عليها طابعها الكوني مما يجعل أمر الحديث عن هوية ثقافية محلية يبقى أمراً ملغى وغير متجانس، باعتبار أن تأثير العولمة غير من خصوصية هذه الثقافات.

في ظل العولمة الثقافية، يتفاعل النسق الثقافي للمجتمع مع أنساق ثقافية أخرى، وهو الأمر الذي ينتج مظاهر هامة يجب الاهتمام بها وقبولها، وهي كما حددها الباحث "محمد زغو" في حديثه عن أثر العولمة على الهوية الثقافية، تصبح العولمة على المستوى التكنولوجي مساعدة على اكتساب ثقافة البحث العلمي والتقدم التقني وخاصة في مجال الإعلام والاتصال، ثم هناك مستوى التواصل والتعاون، بحيث تعد العولمة الثقافية سبباً كافياً للاتصال والشراكة الثقافية بين الأمم والأفراد. ثم على المستوى الاجتماعي حيث تعدّ العولمة من خلال وسائلها الخاصة: وسائل الإعلام وحرية الصحافة والرأي الحر بمثابة دعامة للحوار والتفتح الثقافي والاستفادة من ثقافة الغير، ثم إن الإعلام يساهم في الرفع من مستوى الهوية الثقافية الوطنية والفردية لإثبات وجودها وبروزها على المستوى الدولي، كما يكمن دور العولمة الثقافية كموضوع للتفاعل والتواصل خاصة في مجال الإعلام، الذي يدعم حقوق الإنسان والحريات السياسية وثقافة التعبير والمعارضة ووجهات النظر والدفاع عن السياسات الثقافية للشعوب في مفهوم الحقوق والحريات، ثم هناك تأثير هام على المستوى الشخصي والإنساني للعولمة حيث أنها تقوم بتحويل الانتماء من حالة التّعصب إلى حالة المرونة والاعتراف بالغير في ظل الإنسانية بهدف القضاء على التّعصب والجمود الفكري. من هنا فالعولمة الثقافية تدفع الناس إلى التحرك والسّير في الإصلاح والقضاء على التبعيّة الثقافية في القيم والعادات، وذلك باستعمال وسائل وأسباب دعم الهوية الثقافية استناداً إلى التعاون والترابط والتّماسك بالانتماء وعدم التّعصب.

وفيما يخص الآثار "السلبية" للعولمة على النسق الثقافي أو الهوية الثقافية للأفراد والشعوب، تكمن فيما قاله "صامويل هنتغتون": "أنّ الاعتقاد بضرورة تبني الشعوب غير الغربية لقيم ومؤسسات ولحضارة غربية لهو أمر غير أخلاقي في نتائجه (بالنظر الى نتائجه وتوابعه)"¹، بهذا المعنى تسعى الثقافة المعولمة إلى إقصاء الخصوصيات والهويات الثقافية الأخرى إلى حد لا يكون فيه لأي مجتمع ثقافة ذاتية أو هوية ثقافية أو نسق ثقافي قائم بذاته، فالعولمة بهذا المعنى حسب "دانييل ميركور" (Daniel mercore) "تحقق معرفة موحدة للنظام العالمي والتوافق الكوني في سياق العلاقات الحالية للسلط والمجتمعات والثقافات"².

تؤثر العولمة باعتبارها سيرورة ممتدة لا تعترف بالحدود المجالية والوطنية، على الهويات الثقافية للمجتمعات والشعوب وذلك عبر مجموعة من الآليات والميكانيزمات وهي:

1- محمد زغو، أثر العولمة على الهوية الثقافية للأفراد والشعوب، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية 4-2010 ص 97.
2- يوضح الباحث "دانييل ميغكوغ" كيف ساهمت العولمة في بلورة مجتمع جديد، أو ما يسمه بالمجتمع العالمي من حيث التوافق الحاصل بين الدول وقبولها بالدينامية العالمية الحاصلة بفعل تأثير ظاهرة العولمة، وهذا ما قام بتحليله سوسيولوجياً في كتابه:

3-1- آلية التعميم:

من خلال التّوصيف الدقيق الذي قام به المفكر السوسولوجي "دانييل ميغكوغ" "mercure Daniel"¹، يمكن إبراز آلية التعميم والكشف عنها كإحدى آليات العولمة الثقافية والتي من خلالها تسعى إلى تعميم نمط أو فكرة ثقافية على كلّ المجتمعات والهويّات أو الأصناف الثقافية، ويتمّ ذلك عبر وسائل الإعلام والاتّصال التي تلعب دوراً مباشراً وغير مباشر في تمرير مجموعة من المعايير والقيم والسلوكيات والظواهر الدخيلة على المجتمعات والثقافات المحلية على نحو "سلي"، وعمل الواقع يثبت ذلك حينما يتمّ بث خبر أو حدث معيّن في بلد ما، لينتشر ويعم باقي المجتمعات والثقافات الأخرى، كالحديث مثلاً عن تعميم صورة العرب في مخيال الثقافات الغربيّة أو تمثّل صورة الإنسان العربي لدى الثقافات الأوروبية والأمريكيّة عبر الساحة الإعلامية، بحيث يقدّم الإعلام العالمي صور نمطيّة عن الإنسان العربي باعتباره شخص متعصب، يتحكم فيه "الهاجس الجنسي" ويتميز ب"الغباء" ثم الوصول إلى درجة نعتة "بالإرهابي" في أي حدث إرهابي يقع، فكلّ هذه الصور النمطيّة تصبح متداولة لتمرّر وتعمّم بمنطق ثقافي، وتصبح فكرة معولمة تسود العديد من المجتمعات في العالم، وهذا ما يقوم به الإعلام "المعولم" عبر تجليات كثيرة. ومن هنا، فألية التعميم التي تشتغل بها العولمة الثقافيّة تتّجه في سياق اشتغالها، إلى بلورة أشكال وصور ثقافية لا تخلو من الأخطاء والمعاني القاصرة والأحكام المسبقة، وهذا ما يفرز نوعاً من قصور الفهم الثقافي الذي يشمل البنيات الذهنيّة للأفراد، مما ينتج في نهاية الأمر بما يمكن تسميته بالألا تواصل الثقافي الذي تغيب فيه فكرة الحوار الحقيقي مع الآخر.

3-2- آلية التحويل:

هناك أيضاً آليّة التحويل بوصفها إحدى آليات تأثير العولمة، تتمّ من خلال تعزيز صورة وشكل ثقافي معين وتحويله إلى نموذج عالمي يقتدى به، ينطلق من مجتمع واحد ليعمّ جميع المجتمعات والثقافات المحلية، وهذا ما جعل "توملينسون" يعتبر أنّ العولمة تعزّز قابلية الحركة المادية أكثر بكثير لتؤثر على تحويل النواحي المحليّة ذاتها، بمعنى تحويل هويّة ثقافية لمجتمع ما وإخضاعها لرؤية ثقافية شموليّة عابرة للمجتمعات، وهذا ما قد يتجلّى على سبيل التّحديد في تلاشي بعض مكوّنات التّراث الثقافي المحليّ بفعل انجراف العولمة واجتثاثها لما هو محلي. وتجدر الإشارة إلى أنّ آليّة التحويل تشتغل على نحو ترابطي مع آليّة التعميم باعتبار أنّ الصورة الثقافية حينما يتمّ تعميمها فهي تُحوّل في مرحلة موالية إلى نموذج عالمي، كالحديث مثلاً عن ثقافة "الماكدونالد" التي أصبحت نموذجاً ثقافياً ينطلق من المجتمع الأمريكي ليتمّ تحويله إلى المجتمعات والثقافات الأخرى، وهذا ما يؤدي، إضافة إلى أشكال ثقافية أخرى، إلى عولمة ثقافية تشتغل بمنطق أحادي.

1-Daniel Mercure, Une société-monde ? les dynamiques sociales de la mondialisation, collection sociologie contemporaine, les presses de l'université Laval De Boeck , 2001

3-3- آلية السيطرة:

تشتغل العولمة كصيرورة مؤثرة من خلال آلية السيطرة، وتتجلى عبر سيطرة العولمة على نظم القيم وأنماط التفكير وطرق العيش وكيفيات الوجود وطرق التربية بوسائل "مستترة علنية مضمرة، مباشرة وغير مباشرة، شعورية ولا شعورية ذكية ومتناهية الذكاء، قادرة وبالغة الاقتدار، وذلك من أجل محاصرة وعي الإنسان وتصفية قدراته النقدية ومن ثم استلابه وتوظيفه في خدمة التسليح الاقتصادي والسلعة"¹، كما أنّ آلية السيطرة تشمل التأثير على الإدراك "وتعطيل فاعليته وقولبة السلوك، وتكثيف نوع معين من المعارف...وتعمل في اتجاه تسطيح الوعي واختراق الهوية وتعليب الثقافة"². وبالتالي يصبح الإنسان خاضعا لهذه التأثيرات سواء بشكل واع أو غير واع مما يجعله يفكر بطريقة تنميطية وسطحية دون تطلع نقدي ومساءلة فكرية، وتصبح العولمة هنا تهديداً لمصير الإنسان حيث أصبح العقل الإنساني أمام سرعة تدفق المعلومات وكميتها في وضع العاجز عن الاستجابة، فهناك جدلية على حد تعبير "ألفن توفلر" في مستوى العلاقات والواقع والوعي. هذا بالإضافة إلى ما تحدّث عنه "نيكولا كار" في سياق حديثه عن التحكم والسيطرة التي أصبحت تمارسها التكنولوجيا المتطورة (كتجلى من تجليات العولمة) اليوم على وجود الإنسان من حيث تجعله مقيدا بمجموعة من الاشتراطات التقنية التي أصبحت تشكل خطرا عليه، فالانترنت مثلا أصبح اليوم أداة تقنية يستعملها البعض لمراقبة سلوكيات وتحركات الأفراد، وأكثر من ذلك توظيف التقنيات لفهم توجهات الافراد واختياراتهم وقراراتهم في الحياة، كلّ هذا يصبح نتيجة نهائية لأشكال التأثير التي تسببها العولمة بفعل قوتها وامتدادها كصيرورة مؤثرة.

3-4- آلية الاختراق:

يتحدث المفكر المغربي "يحيى اليحياوي" عن مفهومي "الغزو" و"الاختراق" اللذين تتعرض لهما "الثقافات المتدنية"، فإلى أي حد يمكن اعتبار "الاختراق" آلية مؤثرة من آليات العولمة؟ يجيب المفكر المغربي "يحيى اليحياوي" انطلاقا من حديثه عن السوق الدولي "المتميز بالعولمة والشمولية والذي يصبح عبارة عن مجموعات كبرى من الأفراد تتقاسم، بغض النظر عن حدودها الوطنية، نفس طرق الحياة ونفس أنظمة القيم، ونفس الأولويات والأذواق والمعايير، وبالتالي نفس العقلية السوسيوثقافية"³، وهو ما يجعل هذه الفئات تفرض نماذجها على الثقافات الأخرى مخترقة كافة القيم والمعايير الثقافية المحلية، وتتمّ آلية الاختراق عبر وسائل الإعلام كالتلفزة والانترنت، فعبرها ومن خلالها يتمّ صنع الخبر و"فبركته"، وبواسطتها يتمّ رسم وإعادة رسم الاقتصاد والسياسة والثقافة. من هنا يمكن القول إنّ التكنولوجيا أصبحت تشكل خطرا قويا على الثقافات المحلية، وهذا ما جعل "يحيى اليحياوي" يعتبر أنّ الغزو الثقافي المحلي إنّما هو حملة ضد قيم وأنماط وسلوكيات تثبت أنّها مناهضة ومناقسة للثقافات المركزية (الغربية) التي أبانت عن

1- علي أسعد وطفة، مرجع سابق، ص 343.

2- نفسه، ص 343.

3- يحيى اليحياوي، في العولمة والتكنولوجيا والثقافة، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى يناير 2002، ص 32.

حيويتها وديناميتها وإبداعها، فهو وباختصار إيديولوجيا تتبنى نظرية البقاء للأقوى، وتؤمن بأنّ الهدف الأسمى يكمن في القضاء على هذه الثقافات والحد من خطورتها وتقويضها كمرحلة أساسية لتطويعها.

إنّ العولمة الثقافية تصبح هنا أحادية، أي أنّ العالم يصبح مكانا وزمانا اجتماعيا وثقافيا واحدا، ولعلّ النقاش العالمي حول العولمة والثّقافة يطرح هنا حول مفهومين أساسيين ألا وهما مفهوم العولمة (Globalisation) والعالمية (Universalisme)، فالعولمة هي "طموح بل إرادة لاختراق" الآخر" وسلبه خصوصيته، وبالتالي ففيه من "العالم". أما العالمية فهي إغناء للهوية الثقافية، فالعولمة هي اختراق لها وتمييع، وتستهدف السيطرة على الإدراك واختطافه وتوجيهه، وبالتالي سلب الوعي والهيمنة على الهوية الفردية والجماعية¹. إنّ أهميّة التّمييز بين هاذين المفهومين يكمن في أنّ العولمة ليست نظاما يتّجه نحو التقدم بل هي أيضا وبالدرجة الأولى "إيديولوجية تعكس إرادة الهيمنة على العالم" (محمد عابد الجابري). هذا يمكن الحديث في مقابل العولمة الثقافية عن العالمية الثقافية التي هي إغناء للهويّات الثقافية المحليّة، والحفاظ على التّراث الثقافي من حيث خصوصيته وتعدّده وقابليّته للتّبادل مع الثقافات الأخرى. فيقدر ما تعرفه المجتمعات من ثقافات خصوصية في العالم ككلّ، إلا أنّ الغاية الجوهرية تكمن في حفاظها على مكوناتها الثقافية كتميز واختلاف يؤدي الى خلق تنوّع ثقافيّ عالميّ يفرز إمكانيّة الحوار والتّبادل الرّمزي الثّقافي وهذا هو كنهه العالميّة الثّقافيّة.

وفي كتابه "التنوّع الثّقافي والعولمة" يتحدث "أرمان ماتلار" عن "مفهوم أو فكرة" تقلص العالم "أي وصل الأشخاص والمنتوجات والأفكار إلى درجة خارقة من الحضارة العالمية، فالإنسان يعيش الشمولية وبحث عنها، وهكذا تكونت تدريجيا من كل الأفكار القومية والاثنية فكرة عالمية"²، وهذا يتجلى في كون اعتبار العولمة الثقافية لا تؤسّس معنى للهويّات الثقافية بل تقلّص تعدديّة المجتمعات والثقافات لتصبح ثقافة شمولية واحدة ممتدّة، وهذا ما حلله "أرمان ماتلار" ليستنتج في النهاية ما أطلق عليه "بنهاية الثقافة المحمية" وذلك انطلاقا من تفكيكه لفكرة "بول فاليري" القائلة: "نحن الحضارات، نعرف الآن أنّنا حضارات فانية".

في سؤال محوري طرحه المفكر "جيرار ليكرك" وهو: كيف يكون للعولمة كلّ هذا الرّخم من التّأثير الثقافي؟ ويجيب عن ذلك باعتبار أنّ "التّخوف من الميزان الحالي للقوى في العالم سوف يوجه الاقتصاد والسياسة والثقافة لصالح الغرب وعلى حساب هذه الدّول. وبالتالي لن يوجد تنوّع ثقافي بين الأطراف المشاركة في عملية العولمة، وإنّما هي هيمنة من جانب الطرف الأقوى"³. فليس هناك رؤية عالميّة تجمع كلّ الثقافات والمجتمعات وتعترف بتنوعها، بل هناك إرادة قوة واحدة تحاول فرض هيمنتها على شتّى الجوانب الثّقافية والسياسية والاقتصادية لكلّ المجتمعات، وبالتالي فهي تفرز وتؤسس نموذجا واحدا يعبر عن

1- محمد عابد الجابري، العولمة والهوية الثقافية، مجلة فكر ونقد، العدد 6، فبراير 1998، ص 9-10. 1

2- أرمان ماتلار، التنوع الثقافي والعولمة، ترجمة خليل أحمد خليل، دار الفارابي، الطبعة الأولى 2008، ص 33-34

3- جيرار ليكرك العولمة الثقافية، الحضارات على المحك، ترجمة جورج كتورة، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى،

سبتمبر، الفاتح 2009. ص 343

طموحاتها ومنطقها الذي يتجه إلى تحقيق التّئميط العالمي بحيث يصبح الحديث عن مجتمع أو ثقافة محلية هو حديث ملغى ومتجاوزا ما دمنا أمام نموذج ثقافي معلوم يفرض ثقله بميكانيزمات تنظّمه وتمنح له امكانات الامتداد والاستمرار.

4- معالم تأثير العولمة على النسق التربوي:

إذا كانت التّربية تشكّل بعدًا من أبعاد الثقافة، فإن العولمة أصبحت تخترق النسق التربوي للمجتمعات، لتؤثر على نظام التعليم كحقل تربويّ على مستوى تغيير مجموعة من الأنساق التربوية القائمة لتحلّ محلها منظومات معلومة جديدة، فتأثير العولمة يشمل القيم والسلوكات وبنية التفكير والنظام الأخلاقي، وهذا ما تحدّث عنه الباحثة " إنيث شونفلونج" في مقالة لها حول العولمة والتعليم، لتبين أنّ الإنسان يعاني اليوم مشكلات كبرى في التّكيف مع الأوضاع الاجتماعية والثقافية الجديدة التي تفرضها العولمة. فالعدّة الوراثيّة ومهارات الإدراك الحسي التي يمتلكها الأفراد تساعدهم في التّكيف وحلّ المشكلات التي تقع في وسطهم القريب ومحيطهم التّقليدي، ولكن أدوات التّكيف هذه أصبحت عاجزة اليوم عن أداء دورها في فضاء التّحولات الجديدة والبيئية الجديدة التي تطرحها مرحلة العولمة.

وبالفعل يشهد العالم قفزة كونية على مستوى تطوير التكنولوجيا ووسائل الاعلام ودورها في تسهيل المعلومة واختصار المجهود البشريّ إلا أن هذا الأمر يصبح قوّة داعمة وهدامة في نفس الوقت، باعتبار أنّ آليات العولمة تخترق الأنظمة التّعليمية وتحدّد من مستوى الإبداع والابتكار التربويّ، وهذا ما تشهده بعض الدّول النامية والتي تقوم بتقليد نماذج تربويّة عالميّة وإسقاطها محليًا دون أن تكون ملائمة لبنيتها التّجهيزية والبشرية والاجتماعية ومتوافقة معها. وأمام هذا الامتداد المرعب لعالم الصورة أيضا في عصر العولمة "تشهد المعرفة العقلية النقديّة ضمورا وتراجعا وتصدعا وانحسارا يهدّد القيم التّقليدية، ويبدّد عطاءات الثقافة الإنسانيّة على نحو مروّع. وفي هذا كلّه تهض قيم الفردية والأنانية والتّفعية والغرائزيّة على حساب القيم النبيلة الخلاقّة التي تتسم بالعقلانيّة والغيريّة والتّسامي والإنسانيّة"¹. ويذهب الباحث "علي أسعد وطفة" إلى أنّ الأسرة والمدرسة لم تعودا قادرتين وفق أدائهما الحاليّ على حماية الأمن الثقافي في المجتمع والوفاء بحاجات أفرادهم من القيم والرموز والمعايير والمرجعيات. كما أنّ سيلا من الصور والأفكار والمنتجات يغرق الكوكب بكامله، ويغيّر يوما بعد يوم من أذواق الإنسان وتطلّعاته وتصرفاته وطرق عيشه ورؤيته للعالم وكذلك رؤيته لذاته.

وأمام هذا الحضور القوي للعولمة الثقافية يصبح نظام التّربية في حاجة إلى إعادة التّجديد، وتقويض مجموعة من الحثثيات المعقدة التي تتخلله كحضور الارتجال على مستوى التخطيط التربوي وتراجع مستوى الأداء المؤسّساتي باعتبار أنّ التربية تحتاج إلى رؤية عقلانيّة تتنافى مع العجز الإبداعي لتؤسس لنفسها نسقا معرفيا وتنظيميا يصب في بلورة نماذج تربوية متينة قائمة على أسس أخلاقية وحضارية

1- علي أسعد وطفة، مرجع سابق، ص 333.

وثقافية قوامها العقل والنقد، يصبح فيها الأفراد ذوات فاعلة وصانعة ومبدعة لا ذوات تسأم من وجودها ولا تؤمن بالثقافة المبدعة الخلاقة.

في نهاية هذه المقاربة يمكن طرح السؤال الآتي: ما السبيل إلى مواجهة الاختراق الثقافي للعولمة؟ ونجد الإجابة لدى كل من المفكر المغربي "محمد عابد الجابري" و"يحيى اليحياوي" بالنسبة للجابري فيضع ويقر ما يسميه بإستراتيجية ثقافية في مستوى العصر قادرة على الاختراق الثقافي مواجهة فاعلة، ثم التصدي بشكل سلمي ومنطقي للقيم والأفكار الدخيلة التي تهدد الثقافة المحلية، بينما يركّز "يحيى اليحياوي" على خطاب المواجهة باعتباره إحدى وسائل الدفاع عن الثقافة والهوية المستهدفين، وهو في طرحه هذا يتبنى ضرورة تقوية مناعة وسائل الغزو المضاد، وذلك عبر ما يسميه بالأمن الثقافي ومواجهة الظاهرة، هذه المواجهة التي تتجلى في التركيز على تبيان محدودية خطابها.

5- خلاصة:

تبقى ظاهرة العولمة ظاهرة كونية تنتشر في مختلف المجتمعات، وتشتغل انطلاقاً من ألياتها في التأثير على غرار السيطرة والتعميم والتحويل، إضافة إلى الاختراق و"الغزو". كما أنّ العولمة الثقافية تتجه إلى خلق نظام عالمي نموذجي لا يقبل التمايزات ولا الخصوصيات، أي أنّها تسعى نحو الوحدة والنمطية مع القضاء على الهويات الثقافية التي تتسم بالتنوع والتعدد.

من جهة أخرى يمكن استنتاج أنّ العولمة الثقافية أصبحت تشكل خطراً على التراث الثقافي للمجتمعات دون اهتمامها بمسألة التنوع الثقافي والخصوصيات الثقافية والتفاعل الإيجابي بينها. وتصبح العولمة الثقافية أيضاً إيديولوجيا مدمرة لبنيات المجتمعات وتهميش لثقافتها، فهي بتعبير السوسيولوجي الفرنسي "بيير بورديو" عنف رمزي يستند إلى علاقة تواصلية إكراهية لاغتصاب الخضوع، كما أنّها تعولم الخصوصيات وتستلمها.

بغض النظر عن الوجه المزدهر للعولمة فإنّها تصبح إمبريالية ثقافية وإمبريالية ثقافية هي مجموعة من المسارات التي بموجبها يدخل المجتمع في صميم نظام عالمي تنجز طبقتة القيادية بالإغواء وبالضغط وبالقوة أو الفساد إلى تنميط المؤسسات الاجتماعية لكي تتطابق مع قيم مركز النظام السائد وبنائه. ويصبح الحديث عن العولمة الثقافية "كمركية عنصرية فاعلة سياسياً"، إنّها بتعبير ماتلار "اثنومركزية" تحوّلت إلى إيديولوجيا تقدّم نفسها كطريق لخلاص الجماعات الدنيا.

أمام هذه الحثيات المعرفية التي تفرزها العولمة الثقافية والتي تؤثر سلبياً على الهوية الثقافية، يقترح مجموعة من المفكرين والباحثين بعض الأفكار النقدية والتقويمية، في مقدمتها ضرورة الولوج إلى ما يعرف بالثورة المعرفية والتكنولوجية، أي دخول العلم لا كمستهلكين وحسب بل كأعضاء مساهمين وفاعلين، وذلك عبر امتلاك العلم والتأهيل والقدرة على الانخراط في عالم المعرفة والعلوم. ثم الانفتاح على الثقافة الإنسانية والتفاعل الإيجابي معها على أساس الإيمان بالقدرة على الأخذ منها ورفضها كذلك، أي التمتع بالحس النقدي أثناء ممارستها.

ويمكن القول في النهاية، وانطلاقا مما قدمه المفكر المغربي "محمد عابد الجابري"، إنَّ العولمة هي نظام Système، والنظام لا يقاوم من خارجه إلا بنظام مكافئ له أو متفوق عليه، فلا سبيل إذن إلى مقاومة سلبيات العولمة إلا من داخل العولمة نفسها بأدواتها وبإحراجها في قيمها وتجاوزاتها.



المراجع:

- 1- توملينسون (جون): العولمة والثقافة، ترجمة إيهاب عبد الرحيم محمد، سلسلة عالم المعرفة، عدد 354، أغسطس 2008.
- 2- الجابري (محمد عابد)، العولمة والهوية الثقافية، مجلة فكر ونقد، العدد 6، فبراير 1998.
- 3- روبرتس (ج تيمونز)، هابت (ايبي)، من الحداثة الى العولمة (الجزء الثاني)، ترجمة سمر الشيشكي، سلسلة عالم المعرفة، عدد 310 ديسمبر 2004.
- 4- زغو (محمد): أثر العولمة على الهوية الثقافية للأفراد والشعوب، الاكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية. 4-2010.
- 5- الشقوري (عبد اللطيف): العولمة ورهان البيو-تقنيات، مجلة فكر ونقد، العدد 25، يناير 2000.
- 6- عماد (عبد الغني): سوسيولوجيا الثقافة، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، فبراير 2007.
- 7- فلوريدي (لوتشيانو): الثورة الرابعة، كيف يعيد الغلاف المعلوماتي تشكيل الواقع الإنساني، ترجمة لؤي عبد المجيد السيد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، العدد 452، سبتمبر 2017.
- 8- كيو (فيليب): من الملك العالمي الى عصر المعلومات، ترجمة حسن الوزاني، مجلة فكر ونقد، السنة الثالثة، العدد 29 مايو 2000.
- 9- ليكلرك (جيران): العولمة الثقافية، الحضارات على المحك، ترجمة جورج كتورة، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، سبتمبر، الفاتح 2009.
- 10- ماتلار (أرمان): التنوع الثقافي والعولمة، ترجمة خليل أحمد خليل، دار الفارابي، الطبعة الأولى 1429، 2008.
- 11- نصار (براهيم): العولمة جدل الثقافة والتربية، مجلة تربيوات العدد 1، 2007.
- 12- نيوتن (ليزا ه)، نحو شركات خضراء، ترجمة إيهاب عبد الرحيم محمد، سلسلة عالم المعرفة، عدد 329، 2006.
- 13- وطفة (علي أسعد) التربية العربية والعولمة، عالم الفكر، العدد 2 المجلد 36 أكتوبر-ديسمبر 2007.
- 14- اليحياوي (يحيى): العولمة وطرق الإعلام والاتصال السيارة، مجلة فكر ونقد، السنة الثالثة 29 مايو 2000.2
- 15- اليحياوي (يحيى): في عولمة الاحتجاج على العولمة، مجلة فكر ونقد، السنة الخامسة، العدد 45، يناير 2002.

16- الءءاوى (ءءى)، فى العولمة والأءنولوجى والأقفافة، مءءل الى أءنولوجى المءرفة، ءار الطلعة بىروء، الطبعة الأولى، بىنار 2002.

17-Daniel Mercure, Une société-monde? les dynamiques sociales de la mondialisation, collection sociologie contemporaine, les presses de l'université Laval De Boeck, 2001-.
Disruption and Control by Nicholas Carr. Rough Type. June 6, 2013.